

عرب فرنسا

للأستاذ عمر الدسوقي

—•••••—

فذلك برهان لا مرية فيه على أن فرنسا نجحت في هذه الديار نجاحاً نفذ إلى أبواب العجاثر في الجبال . أما إن كانت متهمكة فهذا دليل اليقظة الروحية ، والإيمان الكامن في هذه القرى النائية عن العمران ، وحجة على أن هذا الجيل الأثمن أشد بأساً وأقوى مراساً من أن يلين لزرج الحضارة الموهبة ، وأساليب الاستعمار الخادعة .

فقال : لعلها تقرر الحقيقة من وجهة نظر فرنسا ، فليها تعمل جادة على أن تسليخ هذه الشعوب من مقومات شخصيتها ، وتجردها من كل ما يذكروها بمجد تليد ، أو يحفزها لعمل مجيد ؛ وتلهيها عن مثلها العليا بخلق أسباب التناحر بين أفرادها ، وتطغى جذوة الإيمان بالحرية المستقر بالفطرة في كل نفس بشرية بما تقدم من نفايات حضارتها ومادية مدنيها .

ألا ترى كيف فرضت لغتها على المدارس بشتى درجاتها يلقيها الطفل قبل أن يلقن لغة بلاده ، ويعلم بها كيف يعبر ويفكر ويحسب ! ؟ أليس من الخزي أن يُعَلِّم تاريخ هذه البلاد العربية وجغرافيتها باللغة الفرنسية ! ؟ إن اللغة رمز القومية ، وعنوان الشخصية ، فإذا لهج إنسان بلغة غير لغته في حديثه المتداد ومع أهل بيته وجنسه ، فهل تمت ما يفصح عن قوميته ويدل على شخصيته ؟ إن الوجوه تتشابه ، والمقول تتكافأ ، ولكن اللغة وحدها هي التي تفرق بين أمة وأمة . ولأمر ما يبتز الانجليزى بلفته ، حتى وهو غريب ، ويفرضها على الناس فرضاً في الفنادق والمتاجر في أوربا نفسها ، ولا يفكر في تعلم لغة البلاد التي يستوطنها

إن لغة أى بلد تحمل في طياتها تاريخها ، وحضارتها ، وعصارة أفكار أجيالها السالفة ، وآدابها ، وأمثالها ؛ وتذكر دائماً بماضى تلك الأمة ، وهي رمز الشعور المشترك بين أفرادها ؛ فإذا عافها أبناءها وأنفوا من التكلم بها ، وفرض عليهم النخيل لفته ، فقد اقتطعهم من كل ما يذكروهم بكيانهم الخاص وبدد ما بينهم من شعور بالقومية . وهذا ما عملته فرنسا في الجزائر ، وشمال أفريقيا ولبنان وسوريا .

أولا ترى كيف أضمرت فرنسا في هذا البلد نار الطائفية الدينية ، بل فرقت بين أبناء الدين الواحد ، وجعلتهم مذاهب وشيعة ، وزادت هوة الخلاف بينهم ، وجذبت إليها بعض رؤسائهم

عطبت سيارتنا ، ونحن مُصعَّد في الجبل صوب قرية من قرى لبنان ، وكان عطبا إذا ، كوخ مشرف على الطريق ، أطلت منه عجوز نالت منها السنون حتى تركها أثراً متهدماً لإنسان : درداء ، شططاء ، عجفاء ، معروفة اليدين ، مخددة الوجه ، محدودة الظهر . وكأنما راعها أن تقف سيارة نخمة بباب كوخها التهدم المتواضع الذى يحاكى قداما ، ويحانسها ضعفاً ، ويمثلها قماء ، فأخذت تحيل فينا بصراً لا يزال حديداً ، لم يبل كما بلى جسمها ، ولم يرث كما رثت مُنشئها ، يتطلع إلينا في لهفة وعجب ، كأننا من عالم آخر لم يره من قبل .

فقال صاحبى يداعبها : مُصَّحت بالخير يا خالة . من أى العرب أنت ؟ ، فأجابت بلهجة جبلية قحة ، وبصوت خشن ، استمار غلظته من هذه السخور الجاسية التي تحيط بها : « إني من عرب فرنسا » . فقال صاحبى ذهشاً : « وى ! وهل لفرنسا عرب ؟ » فتلصعت العجوز ، وحارت ثم أجابت : « إنا لا نعرف غيرها حاكما على هذه الديار . قد بسطت ألويتها على السهول والجزون ، وتغلغلت لغتها في القرى والساكن ، والبيوت والتاجر ، ينطق بها الصغير والكبير ، ويهوى بالتشديق بها الحفصير والأمير ؛ قد طبعت بلادنا بطابعها ، وتدخلت في الهين والجليل وملكت أزمة المال والرجال . وإنى في وكرى هذا لأحس بأسها وسطوتها فهل حدثت عن المجادة إذا قلت : إني من عرب فرنسا ؟

ولم يطل صاحبى معها الحديث لتستشف خبيثة نفسها ، وتعرف أمتهكة هي أم جادة ، وفرحة بهذا الوضع أم ترحة ؟ فقد جارت السيارة مستأنفة السير فهرولنا إليها مشيرين إلى العجوز مودعين . وما إن استقر بنا المقام في النيلة حتى التفت إلى صاحبى وقال : « ما رأيك فيما سمعت ؟ » فقلت : « نكراً والله ، إن كانت هذه العجوز جادة تقرر حقيقة قد سلت بها ، واعتقدتها من قلبها

الفانين ، والعرب الفاتحين ، وأهل جبال فيهم مراس وبأس ، وصبر واحتمال ، ونزوع إلى المخاطرة والمغامرة ، لا يباينون بالشدائد والأحوال في سبيل أهدافهم ، فكيف رضوا بنير الاستعمار ؟

فقال صاحبي : إن الاستعمار دنس ، يلوث النفوس الطاهرة ، ويوهن العزم القوي ، ويفتن القلب الأبي ، ويضل العقل الذكي . إنه امتحان للانسان وكرامته ، وأنحطاط به إلى مرتبة الرق . وأوروبا قد حاربت الرق الفردي ، ولكنها استباححت الرق الجمي . فخرجت سوريا من الحرب الماضية منهوكة القوى من الجوع والجهل والضعف ، وطعمت فيها فرنسا ، فأبى فيصل وأتباعه على ما بهم من ومن أن يكونوا طعمة صينة ، ثم كانت موقعة (ميلسون) وبسطت فرنسا نفوذها على الشام ، وقطعتها إرباً ارباً ، فشرق الأردن ، وفلسطين ، وسوريا ، ولبنان ، وجبال العلويين ، وجبال الدروز ، والاسكندرونة ، وإنطاكية . وجعل لكل جزء رئيس ، وصار لكل رئيس أذنان وأتباع ، يطعمون في المناصب والجاه الكاذب . وبذلك ذهبت قوة بلاد الشام في هذه التفرقة ، ومكّن لفرنسا أن تعمل ما تشاء هي وإنجليا . فلو كان الشمل جيماً ، والقلوب متحدة ، والقوى متضافرة ، والموارد متجمعة ، لكان الشأن غير ما ترى اليوم ، ولكن قاتل الله الرق والاستعمار ! كان هذا الحديث قبل أن تنهار فرنسا ، وتبتلى بالحن الشداد ، وتسق كأس النذل حتى الثمالة ، وتنهك حرمتها .

وقلنا لعله درس يعلمها كيف يتألم سليب الحرية ، وكيف يشمل تملل الذبيح تحت مدينة الجزار ، وكيف يتأوه المظلوم والمحروم ، ويصعد الزفرات والحشرات ، وقد سدت دونه السبل ، وأشرعت فوق رأسه حرب الناصيين .

وشاء الله أن تمتق فرنسا على يد الحلفاء ، ولم تكذب تنسم نسمة واحدة من الحرية حتى أخذت تتطلع إلى أن تسرق غيرها ، وتبسط سلطانها على سواها من الأمم التي رقت لها وهي مشخنة الجراح فلم يطعمها من الخلف ؛ مع أن فرنسا لا تزال بعد دامية الجراح ، مفككة الأوصال ، تهددها الجماعة بالموت .

وأغدقت عليهم النعم ، ومدت لهم في أسباب المودة ، وأضفت عليهم الألقاب حتى يعمتوا في خلافهم ، وخلقت لهم المناصب ، ووزعتها طبقاً للطائفية ؟ فكيف يرضى هؤلاء وقد نموا بالرياسة أن يخضع بعضهم لبعض ؟ أو لم تسمع بالرب « سليمان » ؟ قلت : كلا ! ، قال : إنه شخص يدعى الألوهية بجبال العلويين ؛ ويرغم أن روح الله حلت به ، وقد اعترفت فرنسا بألوهيته ، وحين ينزل بيروت تضيفه الحكومة الفرنسية في أرق الفنادق ، وتحيطه بحرسها وجندها ، وتقله في أنعم سياراتها ، وتوهمه أنه إله حقيق لا مصرية فيه .

ألا تتصور الرب « سليمان » هذا يعود إلى موطنه في جبال العلويين ، يشيد بفرنسا وعظمتها ويسبح بحمدها وقد بشم من الشيع على موائد الناصيين ، وانتفخ عظمة كاذبة من ثناء الخادعين ، واكتنظ حقيته بالمال والهدايا ثمناً لضميره الذي يبيع للمستعمرين ؟ إن فرنسا تتدخل في الصغيرة والكبيرة من أمور هذه البلاد ، فلا تدع لأبنائها مجالاً للتفكير والتدبير ، والموازنة والتقدير . فهي تريد عقولهم مشلولة أو مغبولة ، أو قل إنها تريد أن تفنيهم معنوا ، وتجعلهم بعد جيل أو جيلين لا يحسون ولا يدركون ما لهم من حقوق وما عليهم من واجبات ، يُدبر أمرهم وهم في غفلة ساهون ويُفرض الأمر حين تنيب تيم ولا يُستأذنون وهم شهود وهكذا شأن الجزائر اليوم ، فلا حول ولا قوة إلا بالله !

فهل بعد هذا تعجب حين تقول هذه العجوز : « إنها من عرب فرنسا » ، إنها من عرب ملك لفرنسا تفعل بهم ما تشاء أو أنهم على وشك أن يكونوا كذلك ، تسومهم الخسف وسوء العذاب ، وتسلبهم حرياتهم ، وتفرقهم أبائهم ، وتقتل فيهم الحياء والإياد ، والروء والوفاء .

قلت : وكيف يرضى أهل هذه الديار بهذا ؟ وعهدى بأهل الشام أولى نجدة وحمة ، وغيرة متقدة وحاسة ملتهبة ، ووطنية متأججة . لهم تاريخ حافل بصفحات المجد والفخار ، وفيهم حيوية متدفقة وذكاء فطري عظيم ، وحرارة إيمان شديدة . ثم هم أحفاد

فرض عليهم قسراً ، ولأنهم يرون أنفسهم ومن ورائهم ماضيهم وبين أيديهم حاضرهم ، أكثر رشداً ، وأقوم خلقاً ، وأوفى عهداً ، وأشد جلدأ من هذه الأمم التي تفرض نفسها على غيرها ، وتسم غيرها بالقصور ، وهي في أمس الحاجة إلى مرشد حكيم ينجيها مواطن الزلل ، ويمرنها أن طرق الاستعمار القديمة البالية لا تستينفها الأمم بعد اليوم ؟ !

كل البلاد العربية في موقف مشابه لسوريا ولبنان ، وهما تمبران اليوم عما يحيش في كل نفس عربية ، وتضربان بجهادهما الرائع وضحاياهما الخالدة البرهان الناصع على حيوية هذه الشعوب العربية ، وما تستطيع أن تفعله كل منها حين تقف للجهاد ، وتزأ زئير الحرية . وتضافر الأمم العربية معهما وشدها أزرهما المحك الذي تبلى به جامعة الأمم العربية ، فإما عزة وسؤدد بيقين للابد ، وإما خزي وعار وذل واستعباد لكل هذه الشعوب لا قدر الله . فهل آن لنا أن نعيش أحراراً من نير أوروبا ؟ !

عمر الرسوفي

كنا نظن ، وقد ذاقنا مرارة الذل والاستعباد ، أنها ستقدر نزعات الحرية عند غيرها من الشعوب ، وكنا نظن ، وقد اعترفت الدول الكبرى باستقلال سوريا ولبنان أن لم يدعنا مجال للمساومة في الرق بأي صورة كانت : انتداباً ، أو استغلالاً ، أو امتيازاً .

وكنا نظن ، وأوروبا بأسرها كانت تقا تل حتى أمس القريب في سبيل الحرية ، والمبادئ الديمقراطية ، أننا مقبلون على عهد جديد ، يكرم فيه الإنسان أينما كان ، وتمجى فيه السيادات ، ويميش الناس سواسية متحايين بعد هذه المحنة القاسية ، والحرب الشنعاء . وإلا فقيم كانت كل هذه الدماء المرافقة ، والدعاوى العريضة ، والبلاد المحرقة ، والإنسانية المنكوبة ؟ !

يا عجباً ! تلجأ فرنسا التي كانت تن بالأمس تحت سياط الجلاد ، إلى تلك السياط التي تسلطها على شعوب تأنف في شتم وكبرياء أن تدين بعد اليوم لأمة ما بالطاعة والعبودية . أتغرب دمشق بالدافع والطائرات الفرنسية ، لأن أهلها يرفضون وصاية وانتداباً

شركة كبرى ومطبعة في بيروت واللاذقية

١٢ شارع الشيخ محمد عبده بجوار الأزهر

تليفون ٥١٣٢٢ - ص . ب القورية رقم ٧١



أكبر المطابع العربية وأشهرها

بها أعظم استعارة لفشر المؤلفات

الحديثة والمكتب الفرع

العالم الديمقراطي كما رأيته

تأليف رمانة مصر الكبير محمد ثابت



رحلة ممتعة يقصها علينا المؤلف بأسلوب شيق يذكركنا بالمشهورين من رجال الرحلات العرب كابن بطوطة وابن جبير والبيروني ، فالقارى يتبعه مستأنساً به خلال رحلاته في بريطانيا وإيرلندا وأستراليا ونيوزيلندا والولايات المتحدة وكندا والصين وسد بأجوج ومأجوج وغيرها من بلاد الله الثمن ٣٠ قرشاً عدا أجرة البريد ويطلب مع جميع مطبوعاتها من المكاتب الشهيرة ومكتبة فيكتوريا بالإسكندرية